شعر

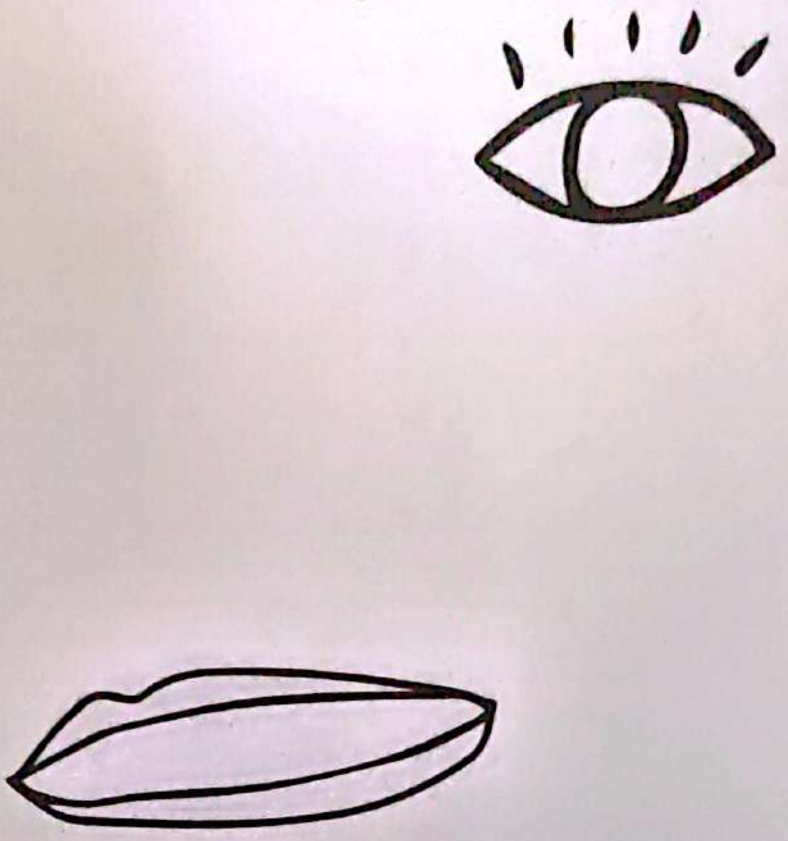

سوزان علي

المرأة التي في فمي

براءات
المتوسط

المرأة التي في فمي

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Al-Maràa Al-Ati Fi Fami *by* "Souzan Ali"
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: سوزان علي / عنوان الكتاب: المرأة التي في فمي
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-12-3

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

سوزان علي

المرأة التي في فمي

براءات
المتوسط

نمْ سعيداً، أيُّها الحُبُّ
يا قشرةَ الضلالِ الأخيرة فوق هذه الأرض،
أنا قطّةُ خطواتِكَ حين يطردونَكَ من العمل.

نافذتُكَ ظهيرةَ يهزُّ الحنينُ ثيابَكَ فوقَ حبلِ الغسيلِ
أنا خيطُ الماضي المارقُ وسطَ شهوتِكَ.
أزرعُ الندبةَ تحتَ حاجبِكَ بأزهارِ عبّادِ الشمس
وأبتعدُ، أبتعد
كي تنظرَ إليَّ من جديد
و نغادرَ معاً
الحانةَ ذاتها،
أسنِدكَ على كتفيّ
و أدلّكَ على بيتك،
و أمضي.
أنا البرتقالةُ التي سقطتْ للتّوّ
في غفوتِكَ، أيُّها الحُبّ.

يأخذُني الرصيفُ إلى البيت
يأخذُني البيتُ إلى الفوضى
تأخذُني الفوضى إلى الشجرة
تأخذُني الشجرةُ إلى جسدي
عميقاً عميقاً
رائحتي تحومُ حول جذرِ رمّانةٍ في أعالي الجبال.
لا تفتحْ خزانتي
أنا كومةُ قشٍّ في وادٍ سحيق،
إن بلَّلني المطر
أظنّني غباراً
وإن سَحقَتْ أضلاعيَ أغنيّةٌ شاحنةٍ مسرعةٍ
مُحرِّكةٌ شَعْرَ ساقيَّ
أتخيّلُ نفسي عاهرةً فقيرة،
خُلِقَ الحُبُّ بعيداً عن سريرِها الملتصقِ بالحائط،
وعن شقِّ تنُّورتِها السوداء.
أخذَ في زوَّادتِه ضعفي
- الضعف الذي أحبّ -

وأفردَ جناحاً كاملاً لوداعي
قبَّلتهُ
كنتُ أجري وراءه كمعطف رثّ
تتدلّى جُيُوبُهُ إلى الخارج كدموع،
لم أكنْ أرجوهُ العودة
لم أكن حتّى أتوسَّلَ برودة أطرافه
بعناقٍ طويلٍ بين ذراعَيّ
كنتُ أصرخُ
أرجوهُ ألاّ يبتعد
قبلَ أن أعطيه
فمَ المرأةِ الذي نسيَهُ في فمي.

صورتُكَ ممزّقة
وأنتَ طفلٌ
دربُكَ ممزّقة أيضاً.
بين جَبَلَيْنْ
طارَ عصفورٌ خلفَكَ
تبعَكَ حتّى النَّهر
أسمَعَتْكَ الدُّرُوبُ الضيِّقةُ أغنيّةً
ومن وقتِها وأنتَ تحكي لي
ما قالتْه لكَ.
تأتيني أنفاسٌ غريبة
لا أدري إن وصلتْ إليكَ الآن
وأنت عارٍ
بينما العتمُ بدأ يغطّي ساقيْكَ.

أمشي بخفَّةٍ قربَ الشِّعْر
ومن ساقِي يتدلّى جوازُ سَفَر وخواتم
لا أبوحُ بأسرارِهِ التي تمنَّت أن تحدثَ يوماً.
لا أعرفُ عن أرض الحُبِّ شيئاً
وكلّما اقتربتُ منه
لألمسَهُ ، لأتبعَهُ، لأسمِّيهِ
لأقولَ له: خذني معك
اشتَهِ لي سرّاً كحجرك
كلّما حدثتْ تلك الهوّة
بين شمِّ الوردة ولمسِها

أكتبُ قصيدةً عن الحُبِّ الذي لا أعرفُ من أين يأتي، لأنتظرَهُ حافيةً، عاريةً، ولا كيف ينتهي، لأنتهي قبلَهُ حافيةً عاريةً.

النهاية تُسمِّي الطِّفلَ
والاكتمالُ يبحثُ
عن سكّينٍ تمزِّقُ الضوء
عن قشرةٍ يُغطِّي بها عينَهُ،
في عمر الثلاثين،
الجَسَدُ يُصلحُ ساعةَ الحائط.
كلّ الكلمات المارقة
التي نغصُّ حين نقولها
التي تغصُّ حين لا نقولها
التي تبتعدُ، وفي يَدِها وجهنا
التي تقتربُ، وفي حضنها سكّين،
وداعات المرضى على باب المستشفى
المنبّهُ، مِقصٌّ مكسورٌ، أقلامُ تلوين في حوض السمك الناشف
أصابعُ الموسيقى وراءَ كلمة «أعدكَ»
حواسُّ أمّي الخارجة للتّوّ
من مشهدٍ حميميٍّ في حكاية.
أنا لا أبوحُ بأسرار الشِّعْر
تلك التي حدثتْ بيننا يوماً

في الأمسِ، نقعتُ طعم إصبعِكَ فوقَ قميصي، مُتمتمةً أغنيّةَ المومس الشاحبة على مقعدِ آخر الباص، تحضنُ حقيبتَها كطفلٍ، شاردةً تنسى أن تدفعَ الأجرةَ، كما نسيتُ أن ألعقَ قميصَكَ قبلَ أن تبدأ الحربُ.

صحنٌ خشبيٌّ فارغٌ فوق الطاولة
صفيرٌ في الماء
عيني يابسة
وآثارُ رجلٍ في الممرّ تخرجُ من الباب،
الشوكولا مغشوشة
الرسائل تأخّرتْ
ظلُّ بعوضة فوقَ ساقي
تمصُّ ركبتي
لا أفكّر بقَتْلها.

كان شتاءً
والطريقُ إلى بيتي مُوحلة
جلستُ أنبش حكايا نساءٍ فوقَ سترتك
أذوقُ دمعَ إحداهنّ، ثم أرنو إلى عينَيْكَ الحزينتَيْن.
قلتَ عنّي : تتصرّفين «كعجائز»
كنتُ أنفخُ أنفاسي في جوفِ يَدَيْكَ، لا مبالية بما تقول،
وأرقبُ تلك الشرارةَ الناعمةَ، تتّسعُ حول جسدي.

أهديتَني دُمىَ الكاتيوشا
كانتْ أسعدَ منّي
تلك الأحجامُ الخشبيةُ المأخوذة بابتسامتها حدَّ الشفقة
في الأولى، رميتُ خاتمَ خطوبتي القديمة
وفي الثانية، وضعتُ ملعقةَ جدّتي الفضيّة،
أما آخرها، فخبّأتُ في جوفِها رصاصةً طائشة
كادت أن تقتلَني،
لكنْ، مع هذا، كانت أسعدَ مني في غيابِكَ الطّويل
هل انتبهت؟

يحدثُ أنْ
تجيءَ التفاصيلُ
شبيهةً بعمر العشرين
كأنكَ كنتَ معها
لمَّا اجتازت الشارع
مُتمتمةً
بأن الضوءَ حينَ مرَّ قُربَ آينشتاين
كان ذاهباً أيضاً إلى المدرسة.

تجثو قطّةُ الوحدةِ السوداء
قربَ الكنبةِ ذات الوساوسِ المسترخية
وحمّى القلقِ تَدّعي
أنكَ حفرتَ ثقباً في لوحة غوستاف كليمنت
وتبخّرْتَ وسطَ الحائط،
كائناتي تعيشُ على أثَرِكَ
ولمْ تأكلْ شيئاً
في غيابِكَ.
مطرُ اليوم يسقطُ فوقَ فوضى جسدي
وفوق جثثٍ مُتفحّمةٍ على الطرف الآخر،
له رائحةُ الخيانة حولَ برّة قائدٍ مَسموم
طعم أصابعِ محروقةٍ فوقَ جَسدِ امرأة بعد أن نامَ زوجُها،
أنهضُ من سريري ومع شالي القديم
ألفُّ غرابةَ مناماتِكَ على كتفيّ
مُنصتةً إلى شتاءِ فيفالدي
كما جاءكَ في المنام:
«يداكَ تدخلُ جوفَ الشجرة، لتَخرُجَ منها غصناً يابساً»

قلتَ لي أشياءَ كثيرة
ولمْ ألتفتْ إليكَ
كنتُ أعلمُ
أنني سأنقلُ بيتي إلى ظلالِك،
عندما تفقدُ المدينةُ عينَيْها، وتصرخُ مثلَ شحّاذٍ على ظُهُورِنا.
تحتَ غُيُوم الفودكا
شرفتي شجرةُ رُمّان.
بابُ خزانةِ الثيابِ ينتهي في الطرفِ الآخرِ من العالم،
حيثُ صوتُكَ يصرخُ في وجهِ الأبدية:
وراءَ الفُصُولِ الأربعة،
امرأةٌ عاشقةٌ.
صوتُ فيروز القادمُ من نافذةِ جارتي الأرمنيّة هذا الصباح،
يبدو حزيناً

كاللحظة التي رتّبَ فيها السائقُ حقائبَكَ مستعجلاً في مؤخّرة السّيّارة، واضعاً أكياسَ الأعشابِ البرّيّة والكُتُبَ وآنيّة الفخّار فوقَ ثيابِكَ، الأشياء التي جلبتُها لكَ سرّاً. تمنّيتُ لو خبّأني أيضاً في المقعد الخلفيّ،

مشَتْ السّيّارةُ،

ركضتُ مسرعةً في الشارع،

أنا الوحيدة

التي تعوّدتْ ألاّ ترى من الدهشةِ سوى ظهرِها.

كنتُ أريدُ أشياءَ أخرى

غير أن تعطيَني الزنبقةُ، التي أحضرتْها صديقتي، تلك الرائحةَ،

إنّها وحدَتي العميقة

تفوحُ أكثرَ قربَ انحنائِها خارجَ المزهرية.

أُرخي ظهري على ظلّها

لأنامَ في حُلم جذرِها.

ماسورةُ المغسلة معطّلة منذ بدايةِ الحربِ، الماءُ يُنقّطُ في السَّطل المُمتلئ، يأخذُ جسدي كلّ يوم إلى النهر، في قاربٍ مثقوبٍ، أتمدّدُ فوقه، وأرقبُ الأغصانَ تطفو مثلي، أسحبُ الغُيُومَ، النُّجُومَ، الأمّهاتِ، الطائراتِ الورقيةَ، الطُّيُورَ، الأحلامَ، أسحبُها جميعاً، لتغرقَ معي، قبل أن أفيقَ، وأُفرغَ السطلَ في أصيصِ الغاردينيا.

تتدلّى الغاردينيا أكثر،
و يتّسعُ ثقبُ الماسورة
يصغُرُ جسدي، ويصغُرُ قبل أن يختفي.

أشاهدُ فيلماً عن هُرُوبِ سجين
وأخيطُ بندمٍ زرَّ المخدّة.

أقرأُ خبراً عاجلاً أسفلَ الشاشة
أمسحُ صورةَ زفاف أمّي على الحائط مَرَّتَيْنْ
كان الجميعُ ينظرُ إلى الكاميرا باسماً
إلاّ أمّي
جَثَتْ فوقَ وجهِها حديقةٌ مهجورة.
أحملُ الصورةَ إلى المرآة
أضعُها قربَ وجهي تماماً
ما الفرقُ؟
على فمي رجلٌ يخونُني
وأسفلَ نهدَيَّ غزالاتٌ تركض،
بين نظرتَيْنا
أمّي في الصورة
وأنا في المرآة
ذبابةٌ تدور.

تفّاحةٌ بَينِي وبينَ أفعى المِرآةِ
لقدْ رأيتُ كلَّ التّفاصيلِ
ونمتُ في اللّذَّةِ
حتَّى أيقظَني دمعُها.
المرآةُ صدئةٌ في الحُبِّ
لاشيءَ يُعلِّق عليها
و لا أحدَ يلتفتُ إليها.

في الوحدة ينبتُ الحقدُ على أطرافِ المرآة كالفطر، يسرقُ بقايا ابتسامَتِي على الجُدران، ليمسحَ به جرحَها. تصعدُ وتهبطُ أنيابُ الحقدِ تاركةً خُدُوشاً أسفلَ ظهري.

وجهُ المرآة صافٍ في الوحدة.
أرتدي ما يشتهيهِ العتمُ
وأهربُ إلى النوم
لتهربَ المرآةُ إلى رجلٍ غريب.
لا أعلمُ ماذا تحكي له عنّي
عن كُرهي لأعشاشِ العصافير في أُصُصِ الشرفة
عن الزهور التي سَقَيتُها، ولم تتفتّح
القُبلاتُ التي تركتُها على المقاعد لغيري
الفساتينُ المُعلّقةُ كمشنقة.

ظهري نصفان

طريقٌ ترابيّةٌ خَطّتْها النِّعالُ المهترئةُ فوقَ الوحل

ألا يصلحُ هذا النصفُ العميقُ صورةً لأمّكَ وأبيكَ؟

علِّقْ عليه بالقُربِ من الصورة أيضاً مفتاحَ بيتِكَ المهجور

واتركْ لي النِّصفَ الآخر

اتركْهُ كما خُلِق

للوداعات المُشرَّدة وراءَ كلابها على المفارق.

أضعُ ثياباً في الغسّالة

وأنتظرُها حتّى تدورَ أمامي

أبقى قليلاً

أتعبُ

وأدورُ مثلها

يدورُ البيتُ وخُدُوشُ ظهري ورجالُ المرآة الغرباء.

أعيشُ على هذه الموسيقى منذ بداية الحرب.

أطوي ثيابي على عجلٍ، أضعُها على رفوفٍ من السنديان، تُغيِّرُ الفُصُولُ مزاجَ ثيابي، أنا شجرةُ كينا في الشتاء، يجلسُ تحتي العاطلون، يشردون ويدخّنون ويشربون قهوةَ الطريق. ساعاتٌ طويلةٌ تمرُّ، يُحدِّقون وعلى وجوهِهِم الحزينةِ تتساقطُ أوراقي.

أنا شجرةُ زيتون في الصيف، سنديانةُ الخريف، تَعلَقُ بين أغصاني أكياسُ النايلون، والأوراقُ، وأكمامٌ مهملةٌ.

يَخزُ الغبارُ قلبي.

أنثرُ ثيابي فوق رفِّ الخزانة كالورق العالقِ على الشجر، وفي الربيع أحملُها على ظهري، وأعودُ إلى الشمال.

أخافُ الشِّعْرَ أولَ الخريف،
أخافُ الأصدقاءَ والسفرَ الطويلَ

إن دقّوا عليَّ البابَ صباحاً، ولم يجدوني
إن تكسّرتْ صفصافةُ الحيِّ القديم على سلّم بيتي،
وانتصبتْ قُربَ العتبة شاهدةُ قبر مجهول،
إن التصقتْ بقبضة البابِ أزرارٌ، ونادت باسمي.
أخافُ عتباتِ الخريف أن تصلَ بيتي.

أحسدُ أحلامَ اليتيم، يُكوّرها بين ساقَيْه، ويغفو.

تحسدُكَ الحربُ، لأنك تملكُ عتبة،
تضعُ أمامها نبتةً وسجّادةً صغيرة،
ومن شُقُوق الباب تدخلُ عُطُورُ الغرباء،
تتفحّصُ صورَ الجدران
عنكبوتُ الصُّحُون الصينيّة
وتغادر.

أصواتٌ على السّلّم
تصمتُ عند بابي،
تتأمّلُ النبتة
وغزلانَ السّجّادة الصغيرة.
تنسلُّ من تحت العتبة
تصعدُ ثم تعود.

ألِفَتْ الذكريات بيتي
لم تعهدْ ثياباً وأقراطاً وعطراً في بيوتٍ أخرى.
كيف للوحدة أن تكتبَ عنّي؟
ستتذكّرُ أني لم أطردْها يوماً
أنمتُها بكعبِ حذائِها الأسودِ على سريري
و جثوتُ قُربَها على الأرض
أضعُ فوقَ رأسِها يدي ككمّاداتٍ باردةٍ، وأعدها ألاّ أتركها.
كلّما عاشرتُ رجلاً
أرجعُ إليها مكسورةً مشتاقة
أنظّفُ أظافرَها بلساني
واستغفرُها
استغفرُها.

هل تأخّرتُ عنكَ، أيتها الإبرُ المطعونةُ أسفلَ الغطاء
عن كيسِ الخبزِ المفتوح
عن كومةِ ثيابي كوُعُود على الكنبة؟
هل تأخّرت عن هذا القلق؟
سامحني، يا لهبَ الشمعة الخافت على وجه فان كوخ،
كان وغداً تائهاً
يحكي عن الحُبِّ
والملاحمِ والشِّعْرِ الفرنسي
جَعَلَني أدخِّنُ كثيراً
و أتثاءَبُ
و أفركُ أصابعَ قَدَمَيّ من تحت الطاولة
بقَدَمَي رجل آخر.

تلويحةُ يدكَ المتعبة تمُسِّدُ ظهري،
إن وضعتُ ذاك العطر.

أمشي كعجوزٍ صوبَ المطبخ، بشالٍ من الصوفِ المُزخرفِ ينسدلُ على كتفَيّ، وجوارب مخطّطة طويلة، أصنعُ لكَ الشايَ مع الحبق، وأخفضُ صوتَ الراديو، كي أسمعَ تثاؤبَكَ البطيءَ، أصير جدّتي ترقبُ من نافذتها شجرةَ المشمشِ في الشتاء، وفي يَدِها كسرةُ خبز، إن شممتُ تلك الرائحة.

أرنو إلى زجاجةِ العطرِ السوداء، وأصير ريحانةً قُربَ قبرٍ مجهول. زَرَعتْني أرملة، وتَفَاءلَت بي، أُعزّي الموت، وأنتظرُ، بلهفةٍ، الزائرين، أنا الميّتة.

أخافُ زجاجاتِ العطر في خزانتي
رجالٌ وأمكنةٌ في خزانتي
عليّ أن أتعلّمَ من العطر، كيف ينمو والذكرياتُ تُغطّيه.
من أين تجيءُ ريحٌ لعُرُوقه، وتأخذُهُ بعيداً
كيف يصيرُ طائراً مهاجراً في الشتاء وكرزة جبلية في الصيف؟

عليّ أن أُتقن حركة العطر، وهي تثقبُ الأيادي المتدلّية فوقَ ظهُورنا بهدوء، وتعلّقُ داخل كلّ ثقب زهرة اللحظات الزرقاء.

العطرُ جاء من ثقبٍ في السماء، بعد أن اتّسعت أحداقُنا صوبَ الله، في مواسمِ الجفافِ والخيبةِ والوداع.

أفكّرُ أن أُخبّئَ في زجاجات العطر رسائلي ومفاتيحي وأوراقي، ربّما تنمو كالعطر.

تعرّفتُ على السّينما للمرَّة الأولى تحت سرير جَدَّتي، بين سلال التّفّاح الجبليّ وحذائِها الأسودِ المركون دوماً بخُطوتها الذاهبة إلى الحقل، بينهما وجدتُ صندوقاً حديدياً أحمرَ مقفولاً بإحكام، ولم أفهمْ شيئاً.

في ما بعد أخبرتني جدَّتي وهي تمشّط شَعرَها فوق السرير، إنّه الكفن.

تفرحُ الأريكةُ عندما أضعُ لها فيلماً عن الحُبِّ،

تزفرُ الصُّحُونُ من صوت البرق، وتتمنّى لو كان بوُسعها الطيرانُ،

تحبُّ الملاعقُ أفلاماً بوليسيّة،

أما أنا، فأشاهدُ أغلبَ الأوقات

ما تريدُهُ المرأةُ التي في فمي.

يتأمّلُني الفراغُ كذبيحة،
أسمَعُكَ تنتظرُني
تريدُ رسالةً أو وَهماً،
بعيداً عن الشّهوة، كنتُ أريدُ الكثيرَ منكَ،
بعيداً عن القمحِ الخجولِ في زجاجةِ الفودكا،
عن خُصلاتِ شعري المتساقطةِ وراءَ خطاي
عن الجنسِ ونرجسةِ نهرِهِ الخائبةِ كأعقابِ السّجائر،
بعيداً عن نهدِ أمّي فوقَ فمي،
كنتُ أعبدُكَ
أعبدُ طُيُورَ أمومتي الجاثية في نومك
أعبدُ كلمةَ أحبُّكِ.
كنتُ وحيدةً وفقيرةً
أنتظرُ تحت الجسر أن يرسمَني رسّامٌ مجهول
ويهديني اللّوحة،
ثم أصعدُ الباصَ الأخيرَ المؤدّي إلى قريتي
كملكةٍ تركبُ عَرَبتَها
وتُلوّحُ للعابرين.

لو يحدثُ أن أنساكَ بغمضة عينٍ، كما تلك الطّعناتِ الخاطفةِ تحت المطرِ،كما السّرقات في وضَح النّهار.

لو يحدثُ بهدوءِ ثلجٍ يذوبُ أن نتبادلَ البيُوتَ، أنا وتلك المومسُ في الطّابق الأوّل،

تُلقي قَهْقَهَاتِها على جُدرانٍ عابسةٍ
وتكسرُ بكَعْبِها ساعةَ الحائط،
سيخلعُ بابَ بيتي أحدُهم،
ويهجمُ عليها كوحشٍ فوقَ سريري.
تحكي عنّي في قلبِها،
تنزعُ لوحاتِ الحائط
وتُعلّقُ صورةً لطفلة.
تُشمّرُ عن ساقَيْها
تُنظّفُ البيتَ حافيةً،
تضعُ الكُتُبَ في السّقيفة،
أفلامُ السّينما في الغسّالة،
تنشرُ ثيابَها والسّعال بلا ملاقط،
ترمي ورودَ المزهريّة اليابسة
وتضعُ في جوفِها خواتمَها الرخيصة ودفترَ عناوين مهترئاً.
نحن وحيدتان، يا صديقتي.
أرأيتِ؟مرايا البيت ظلّتْ مكانَها.

أبكي فجأةً،
نوباتُ بكاءٍ، أنبشُها، لأحصلَ على مفتاح، أو مجدافٍ.
من أين لي كلُّ هذا البكاءِ يا صوت أميّ القطنيّ؟

أتبعُ الدُّمُوعَ كلّ يوم
تسقطُ حارّةً فوقَ الشجر
في جوفِها نساءٌ، لا أعرفهنَّ،
تتمدّدُ بثِقَلِها على الغصن، وتتأرجحُ
ماذا سنقولُ للأرض، إن حكَتْ عنّا دُمُوعُنا؟
جاءتْ شقائقُ النعمانِ من دمع أمّي.

النسيانُ لا يغرق
يطفو فقط.

أكتبُ رسالةً إليكَ وأمزِّقُها
أكتبُ أخرى، ثمّ أخربشُ فوقَها،
أفكِّرُ بالورق
بالشّجر الذي ماتَ لأجلِ كلماتي الميتة.
قربَ معملِ الورقِ يجري نهرٌ بائس
يملؤهُ الربيعُ بالرسائل السّرّيّة
ينصحُهُ الخريفُ بالعودة إلى الوراء.

أكتبُ إليكَ رسالة، وأمزّقها
أسمعُ خريفَ ذاك النهر مجدّداً
و لا أكتبُ شيئاً.

جسدي قلبي
تُثيرني كلُّ رائحةٍ علقتْ عليه،
كلُّ امرأة لم تسقطْ بعد،
و لم يكتشفْ مكانَها أحد
تُثيرني أضواءُ السّيّارات، تُظلِّلُ وجهي الجافّ،
أغرسُ أصابعَكَ جيّداً في جُيُوبي
وأتخيّلُ ضوءاً خفيفاً يسقطُ فوقَ وجهي على خشبة مسرح،
عندما جئتُ إليكَ
بصندلي البُنّيّ الموحل
يُلملمُ معي كلَّ خطواتِ النّساء اللّواتي
كنّ هنا قبلي.
هل لديكَ قهوةٌ لهذا الصباح؟
هل لديكَ أمٌّ لي؟
وطائرٌ غريبٌ يقودُني من سبّابتي إلى الغابة؟
هل لديكَ أطفالٌ لبيتي؟
و اسمٌ لجرسِ الباب؟
ويدٌ تُناولني الدواءَ عند الظّهيرة ؟

يا سعادةً قديمةً
أين أُخبِّئُكِ من الحرب؟

كنتُ بلا مفاتيح
أستعيرُ قُرطَ صديقتي
وأُضيِّعهُ في موعد العمل
عند الأسئلة التي لا أملكُ جواباً لها
لأفركَ القرط مع الوقت والخجل والخيبة.
يا سعادةً قديمةً، كنتُ ابنتَكِ، أتذكرين؟
حَدِّقي في هذه الصّورة أعلى السّرير،
أترين ظلالاً غيرَ مفهومة وسَطَها يظهرُ ظلٌّ واحدٌ لبابٍ مفتوحٍ؟

سلّةُ فواكه زرقاء
يسترخي العنبُ الجبليّ على أطرافها
أمّي تأكلُ العنب
كأنها تقطفُهُ من كرمةِ بيتنا،
تغنّي أختي أغنيّة جدّتي عن العنب،
أمضغُ أنا بِذارَ العنب: في ماذا يفكّرُ الجذرُ الآن؟
الشّعرُ،
أحيانا، بسيطٌ بيننا
كفردٍ من العائلةِ.

أتحبّينَ السفر؟

ودّعَني الجميع، وصرتُ محطّة.

أنا النافذةُ الخافتةُ، نهايةُ شارع القصّاع، أُسمعُ ضُيُوفي أغنيّة فرنسيّة، وأقلّدُ لهم رقصَتَك في عرس أختي.

أنا صاحبةُ الحانَة القديمة وراء الحديقة، أجلسُ على أريكتي البنفسجيّة كلّ مساء، أفتحُ صندوق الصور، لأشمَّ غَمَزاتِ النبيذ فوقَ أزرارِ القمصانِ الحالكة. أنا شجرةُ الكنيسة في ناصية الشّارع، لا يرى المارّةُ من وجهي، سوى غصنِ دمعي العالي، لم يُلوِّح، ولم يبكِ.

أنا درجُ بيتِكَ المهجور في آخر القصّاع، بُرُودةُ جِلْدي تُغري أوراق الكينا بالسُّقُوط، تلعقُ القططُ المشرَّدةُ الحزنَ في وجهي، مُرطِّبة بلسانِها خطواتِ الصيفِ القديمة، عندما كُنتَ تشتهي ألاّ أتأخَّرَ كعادتي.

كنتُ أحبُّكَ
وأحاولُ أن أذوي كحبّات المطر إلى أحشائِكَ،
لم تُعطني باباً
و لا إسورةً، أخشخشُ بها على الحيطان
جعلتَ من ظلِّكَ مشنقةً تحومُ حولي
تأمّلنا القمرَ طويلاً
كوداعنا،
أخبرتُكَ عن ضعفي
عن حيوانٍ يجثمُ على قلبي في الحُبِّ
عن كوابيسَ تطلُعُ من رائحتي في غيابِكَ
عن ألفِ امرأة في داخلي
كلُهنَّ يمشينَ إلى الحُبِّ
بعُيُون زائغة.

نُحبُّكَ
سنبقى نُحبُّكَ
ونتذكّرُ خطواتِكَ السَّكرانةَ، فيما نَحيكُ قمصاناً لرجال آخرين،
نرنو من عُيُونِ أبوابنا السِّحْرية، بانتظار عشّاق آخرين،
نشتُمُهم جميعاً، ونعودُ إليهم من منتصف الطريق،
لكنْ، ليسَ في وسعنا المجيءُ، أو الاقترابُ منكَ،
أنتَ هذا الحزنُ كلُّه، يا حبيبي.

لماذا هذه الزُّهُورُ؟
أحبُّ أن تنتظرَني حتّى الموت.

في زنزانةٍ ما تحتَ ضوء القمر
أرى مع سجينٍ هذه الصورة:
بعوضةٌ مُنتفخةٌ بالدماء
تتمرأى في شفرةِ الحلاقة.
أيّتها النجمةُ
خذي أصابعي، لتبرقي
وأعطني كذبةً، أتبعُها.
المزهريةُ يبستْ في عادتها
أبحثُ عن ملامح، أسعَفَهَا الوحيُ بالتّمرّد
وأجّلتْ هُرُوبها.
أنا بنتُ وحدتي
في اللوحة على الجدار.
أنا أمُّ وحدتي
أعيدُ الأسطورةَ إلى الماء
ببطءِ جثّةٍ تتلاشى.

الصُّدفةُ نكتةٌ
لكنّها أنجبت الريح،
سأتبعُها بحاسَّة الغيمة فوق بيتي.
لا أملكُ جسداً
ولا حتّى رائحة
المرأة التي أخبرتُك عنها
تتقلَّبُ في سريري كلَّ مساء
كمحراثٍ يُقلِّبُ العتم.
ترقبُ ظلَّها ممدَّداً على الجدار
يتنفَّس كجريمةٍ في الظّهيرة
الأظافر نيِّئة في لحمِهِ الطَّريّ
و حول عنقِهِ الحارِّ تدورُ مساميرٌ صدئة
يتحرّكُ على مهلٍ
كنعاسٍ مُؤجَّل
ليموتَ في مكانِهِ
ولتشهقَ المرأةُ فوقَ فمي.

رأيتُ نجمَتي،
وفتحتُ لها فخذَيَّ .

تُصبحُ على أغنيّتي إذاً
وهي تجتازُ النهرَ بساقَيْها الهزيلتَيْن
لاهثةً
حزينةً
بعيداً عن رمية النَّرْد المُصابةِ في قلبها،
رأيتُ نجمَتي التي سهرتْ فوقَ الشّجرة،
لَمَستُ الشّجرةَ التي حملَتْ العشّ،
فتحتُ أصابعَ يدي، كي يَخرجَ عصفورٌ،
انكسرت البيضة
وخَرَجَ منها جناح
ومن يدي نَبَتَتْ وردةٌ
سألتُها من أين جئتِ؟
قالتْ: نهرُكَ فاضَ بوُجُوهه، فنجوتُ أنا.

أحبُّ مخلوقات السماء
أحبُّ تلك النجمة،
وأصيرُ لون كتفَيْك
وأنت تنتظرني عند باب المدينة
كطفلٍ فَقَدَ أهلَه.
تحبُّ لسعةَ الحرب في صوتي
وتُنصتُ حزيناً، لتَرَدُّد خطوتي في طريقها إليك
أحبُّ رعاةَ الغنم في صوتِكَ
هناك على ناصية الشارع
غنّيتَ لي
الأغنيّةَ التي أضاعتْ مفتاحَ بيتي.
تحبُّ دمعةً مضاءةً للحرب في أسفل عيني
ترى منها الجنودَ
والدّمَ
والفراشاتِ اليابسةَ.
أحبُ عينَيَّ المغمضَتَيْن بين كتفَيْك
أرى خطوطاً بيضاء، تتركُها القواربُ وراءَها على سطح الماء
وشحوبَكَ الطويلَ ينزعُ شعرةً بيضاءَ بين حاجبَيْه.

تحبُّ ما فعلتْ الحربُ بي
زنزانةٌ أنا
يراني الضوءُ خربشةً على الجدار
يراني السَّجّانُ نفقاً للهروب
أمدُّ جسدي خارجَ ما تراني
فلا أبتعدُ إلا قليلاً
كأنّ يَدَيْكَ نهداي.

أتدلىّ كصندلٍ عتيقٍ في كرمةِ عنبٍ على سطحٍ شماليٍّ، وضعوه خوفاً من الحسد، ورأتْ فيه حبّاتُ العنبِ صديقاً صيفيّاً غريبَ الأطوار، أصيرُ كغربةِ الصّندلِ تحتَ الغيمِ المارقِ في غيابِك.

جهزّني لكَ الرجالُ الغرباءُ، الذين سقطتْ من رُمُوشِهِم شعرةٌ فوقَ عيني، تمنّوا أمنيّة، وتركوها لي، ثم مضوا.

المكالماتُ السّرّيّة ليلاً، المراهقةُ التي غطّتْ جِلْدي بالأسئلةِ، الأسئلةِ التي لم تتركْ لي رَقْمَ هاتفٍ، لأطلبَها عندما أخاف.

الرجلُ الذي مرَّرَ شَعْرَ ذراعَيْه فوق صمتي، وعلّمني كيف أنطق: أحبُّكَ.

الرجالُ، الفصولُ، الموسيقى، الشمالُ، المقبرةُ، أخي، الطباشيرُ، الخواتمُ، الولاّعاتُ، البيوتُ، الجيُوبُ، الأزرارُ، الرسائلُ، الانتظارُ، الغيرةُ، السّياجُ، أعشابُ البحر، مرآةُ الحمّام.

كلُّهم ألبسوني الفستان الأبيضَ الطويلَ، ووضعوا عقداً من زهر اللّيمون في خصلات شعري، حمّلوني الخوفَ، وقالوا لي: كوني ضفّةً ريثما يأتي.

أعرفُ أنّكَ تكرهُ هذا
تريدُ أنفاسي كموجةِ صوتِكَ فقط
كما لو كنتُ زهرةً، وأنتَ تربتي، لا أخرجُ إلا منكَ، ولا أذبلُ إلاّ فيكَ ..
لكني في الهواء حبلى بأشياءَ كثيرةٍ، ليست لي.
أحبُّكَ.

هل تزوّجتِ؟؟

لقد أضعتُ ما أريدُ، هذا زواجٌ أيضاً.

لا أطفالَ لي

يمسحونَ بأكمامِ قُمصانهم المفتوحة

زجاجَ النافذة

مُلوِّحين لعصافيرِ الثّلج الصغيرة،

وإنْ مضوا إلى أسرَّتِهم

تسلَّلتْ أسماكٌ إلى البيت

وزحفتْ داخلَ أحلامهم.

لا أطفالَ لكَ يمصُّون قلقَكَ في الصّباح

ويقفزون فوقَ أريكتِهِ القديمة

هامسين في أذنِكَ ضحكاتٍ مُتقطّعةً، كسربِ سنونو فوقَ محطّة.

اليومَ
نزعتُ جِلْدَ أمّي عن جَسَدي
وجلستُ قبالته
أقرأ له حكاياتِ هيرمان هسه الخرافية
أُطعمُهُ الفستق
أُحدّقُ في الأشواك تحتَ إبطيْه
في الخواتمِ الضّيّقة حول حبلِه السّرّيّ
في نقراتِ الثلجِ حول تجاعيدِ الرقبة
أخافُ على أمّي
وعليّ
ثمّ أكتبُ رسالةً إليكَ
أُخبرُكَ عن أسنانٍ لبنيّةٍ تنمو تحت أسناني،
تضحكُ بدلاً عنّي،
تطعمُ بدلاً عن أمّي
أوزّاتِ الحديقة،
تعضُّ بدلاً عنكَ
يَدَيَّ الفارغتينِ في الطرقات

أشحذُ سكّينَ المطبخ بسكّينٍ أخرى، أتخيَّلُ لمعانَ سكّةِ القطارِ، وهي تُقلُّكَ إلى بلد آخر، العَرَقُ يتصبّبُ من يَدَيْكَ، تبحثُ عن منديلٍ داخلَ سترتكَ، هل تتذكّرني الآن؟

تسألُكَ امرأةٌ في البار عن بلدكَ والحرب، تلمعُ عيناها وهي تشيرُ إلى خصلةٍ بيضاء في ذقنِكَ، تضحكان مُطوّلاً، ثمّ تتمرأى في كأسِ النبيذ، الشّعرةُ البيضاءُ في ذقنِك جميلةٌ، هل تتذكّرني الآن؟

أنتَ بعيدٌ، تهتزّ صفصافةُ جدّتي فوق جَسَدي، تتسلّقُ يداكَ وجهي، كصِبيةٍ يلهثون عند العصر.

أريدُ أن أنامَ، متى ستودّعُ تلك المرأةَ بقبلةٍ على باب الحانة، وتصلُ بيتَكَ، ثمّ تُغمضُ عينَيْكَ، ولا تراني في انتظارِكَ.

أحلُّ صيفاً ضيفةً في بيت أهلي
غدوتُ غريبةً عن الشمال الذي يمدُّ لسانه في وجهي
أنا وحقائبي
فأديرُ ظهري الحالكَ له
وأُبرمُ خاتمَ جدَّتي الصدئَ في إصبعي،
يخافُ الشمالُ، وكلابُهُ تبتعدُ.

قصيرةٌ زيارتي إلى بيت أهلي
أتمنّى فيها أهلاً آخرين
و بيتاً آخر
وأحياناً كثيرة
أحسدُ زهورَ النسيان السوداء.

كلُّ مرّةٍ أنا غيري،
الورقة التي تمضي في النهر
لا تموتُ من العُزلة
يؤلمُها الماءُ الجاري.

في طفولتي، أنقذتْني المُخيِّلةُ من الغَرَق، فاشتريتُ صندوقاً مع مفتاحٍ،
في مراهقتي غرِقتُ في المُخيِّلة، ولم يُنقذني سوى جَسَدي.
فاشتريتُ قفلاً لبابِ غرفتي، في الثلاثين سَكَنَتْ مُخيِّلتي البيتَ،
فصنعتُ قارباً.

كنتُ أغادرُ تحتَ القمر
أحلمُ بعائلة أخرى
تعيشُ في مقهى على البحر
أبي صيّادٌ
وأمّي مُغنيّةٌ.
لماذا خَلَقْتَني هكذا، أيها الموجُ؟
كنتُ فتاةً طيّبة
أرنو إلى القمر وشجرة سمّاقٍ تهتزُّ في ظلّي
ماذا توَّحمتِ في حَمْلِكِ بي؟
-لا شيء،
تذكّري ماما!
-لا شيء،
هل كنتِ لا تشتهين شيئاً حقّاً؟
-لم أستطعْ حتّى أن أشتهيَ.

الشمالُ
أسطحٌ عاريةٌ فوقَ بعضها
طباشيرٌ تذوبُ في الهواء
نعوشٌ لا تصل
شواهدٌ تُغطّيها الأشواكُ، ويمحوها الفيءُ
مزاريبٌ تجمَّعَ في جوفِها ضوءُ القمر، وكذبةٌ، وأعوادُ كبريت
ملابسُ لم أُعلِّقها يوماً في الخزانة.
داخلَ الحقائب الطريحة كَقَتيلٍ على الأرض
نصفُ مفتوحةٍ مخافةَ أن تتحوَّلَ إلى خزانةٍ في بيت أهلي.
مدارسُ تطلُّ على البحر
بحرٌ يُطلُّ على صنّاراتٍ،
مناماتٌ تلعبُ في الساحات
ووطنٌ يستيقظُ في النشيد.
أزمُّ حقائبي
أزمُّ دمعَ أمّي فوق شَفَتَيّ
وأبلعُ ظلَّ الحورة حولَ فراغِ الزاويةِ والكرسي،
حيثُ جَلَسَ مجدُ الصغير الذي قتلتْهُ الحربُ، حينَ كان يخيطُ قبّعته الصوفيّة، أمّي وضعتْ داخل قبّعته تراباً من أعلى الجبل، أختي تمسحُ زجاجَ الفاترينا كلّ يوم.
أودّعُ أهلي بصمت،
ترابٌ في فمي
وأغصانُ حورة تتكسّرُ بين أضلاعي.

أين أنتَ، يا بيتي البعيد
يا رجالاً أحببتُهُم، وطردتُهم ليلاً،
يا رجالاً كرهتُهُم، وبكيتُ في أحضانهم،
يا قلمَ الحبر الضائع بين أكياس السُّكَّر والأرز،
يا بقعة الزيت فوقَ غلاف كتابٍ مُستعار،
يا رائحة الخبزِ والفلفل والجنس تحتَ الجُسُور،
يا وساوسَ تنتهي في القُبلة، وتصير سناجب
يا نقرات المطر المُتجمّدة داخل الجُيُوب الفقيرة؟.
أحبُّكَ وأكرهُكَ
لو أُضرمُ النارَ فيكَ يوماً
ثمّ أنتظرُ الحريقَ أن يأكلَ أشيائي
الأشياءَ التي قصصتُ لها أظافرَها
ومسحتُ الغبارَ عن جِلْدها كلّ يوم
ثمّ أضاعتْ خطوتي.

البيتُ الذي كلّما فَتَحَ لي نوافذَهُ صدقته، وابتلع ملامحي كشربةِ ماء،
كلّ ما فكّرتُ أن أمزّقهُ، ثمّ أرميه من النافذة
أجلسُ كالمرآة المَرميّة في دُرجٍ
أنا المَرميّة في قلبه منذ زمن.
البيتُ الذي ظننتُ أني خَلَقْتُهُ
واخترتُ ألوانَهُ كحُبلى
فرحتُ بأبوابِهِ الخشبيةِ البيضاءِ، وتركتُها مفتوحة،
ودعوتُ جارتي الجديدةَ إلى كأس شاي بين زهرِ الصّبّار الحزين على الشرفة، ثمّ رحتُ أحكي بلهفة عن البومة في علاّقة المفاتيح الملوّنة، عن صورتي بالأبيض والأسود وسط الجدار، وعن حرف الياء آخر كلمة بيتي.
أشتهي جرّافة، تحملُهُ بين أسنانها الآن
وترميه في زقاقٍ، لا تدخلُهُ سوى الجريمة.

أصافحُ العابرين
هذه عادةُ جدّتي مع النحلات حول ضوء النّيون
عادةُ الفلاحين مع الغيم.
عندما جئتُ إلى دمشق
كنتُ أشتهي
تحياتٍ تُلقَى على جسدي الثقيل
أن يصافحَني النّاسُ في الشّوارع
الغرباءُ التائهون
ذوو النظراتِ المتآكلة
تلك التي تطيرُ، ولا تعود.
لم يصافحْني أحدٌ أبداً
تلعثمتْ نحلات جدّتي فوق أنفي
أمام وُجُوهٍ، لا تنظرُ.

ضائعةٌ بجوارب سميكة
نَخَرَهَا سعالُ الضُّيُوف الرّاحلين فجراً من دار جدِّي
توارثَها أفرادُ العائلة
ورَمَتْهَا في وجهي كلُّ الدُّرُوب التي كبرتْ وضاقتْ على يأسهم.
أدخلُ شارعاً، ثمّ أسألُ عن الطريق،
أشدُّ على جوربيّ الكبيرَيْن بأصابعِ قَدَمَيّ
لأضيعَ مرَّةً أخرى.

هاجر جدّي إلى المدينة بعد أن باعَ الأرضَ والبئرَ والهواءَ، واكتفى بمدفأةٍ صغيرةٍ، وسريرٍ تعلُوه روزنامةٌ، كلّما حرّك الهواءُ أوراقَها، نظرَ جدّي كشجرة يابسة إلى بكرات الصّوف المنسولة من كنزته بين يَدَي جدّتي، وأشعلَ سيجارة.

جدّتي تنزعُ جسد سترةٍ أخرى كأنّهُ عشبةٌ ضارّة
جدّي مازالَ شجرةً يابسةً.

جواربي التي أخذَتْها جدّتي من سترةِ أمّي، كانت تبدو كأعشابٍ ضارّةٍ داخل المدينة المزدحمة، حيث لا عتمَ يسترُ خوفي،

أشدُّ البنطال فوقَها، وأسحبُ قَدَمي إلى داخل مقعد الباص.
الأعشاب تغمرُ جسدي
يرميني الباصُ على أول مَفرقٍ
كعشبة ضارّة.

في بيت أهلي صورةٌ أعلى الجدار لشجرة العائلة، الفروعُ خيطانٌ من الصوف، والأغصانُ أراها جوارب تتدلّى.

بنطالٌ أسودٌ طويلٌ، صَنعَ الوحلُ من أكمامه حُفرةً لحشراتِ رأسه،

سترة واحدة للمطر، ارتديتُها مرّات قليلة، كي لا تحفظَ الأخيلةُ لونَها الباهت.

كلّما أمطرتْ، أُعلّقها على سرير صديقتي قُربَ النافذة
كي ترى المطرَ يسقطُ
مثلها وحيداً .

آه، كم أضحكُ ضحكةً ماجنةً الآن
لكنْ، ما الذي اختلفَ، أيتها الغبيّةُ؟
فساتينُكِ تتخيّل الآن
صارَ لأزرارِها قطّةٌ أيضاً
ورحمكِ غدتْ على شكل حقيبة.
في الماضي، جُلتِ المدينةَ والوُجُوه
بسترتِكِ وبنطالِكِ وجَوْرَبَيْكِ،
ولم تفكّري يوماً بالبُيُوت
ولا الشّرفات
ولا حتّى أن تملكي ثياباً أخرى.

في مزاجي أستحمُّ
الماءُ ساخنٌ كفاية
كي تخرجَ منّي كلُّ الأمكنة
الدوشُ غيمةٌ
البخارُ حولَ جسدي أحلامُ الرجال التي مشتْ فوقي ذات يوم
من سرَّتي تطلعُ طريقٌ ترابيةٌ، تقود إلى المقبرة
عينُكَ الناعسةُ تدورُ حولَ نهديْ، وترسمُ غصنَ نعناع.
التقطْ صورةً للخُطُوط البيضاء التي تنساها القُبلة،
فوضى السهول حولَ خصري عندما تجنُّ الريحُ فجأةً في الناي،
الشّكُّ الرفيعُ تحت طاولة العشاء، حيث النظرةُ تذهبُ في ضوء
الشمعة، وتذوبُ بدلاً عنها،
خاتمُ زواج أمّي الذابلُ حولَ إصبعي الذابلة،
صدفةُ اكتشافِ قبرٍ مَنسيٍّ تحتَ نافذةِ سناء ديب،
أحاديثُ الرجالِ الطويلةِ عن الحُبِّ والجنسِ وخيطِ الشّعْرة بينهُما،
حُبُوبُ الزولام المُوزَّعة في الحقائب الشتويّة،
الغَيرةُ التي تعطَّرتْ ونصبَتْ مشنقتَها، ثمّ انتحرتْ بطريقة أخرى،
حيوانُ السعادة قُربَ كلمة أحبُّكَ.وإن لمحتَ بومةً فوقَ سريرٍ
إن سمعتَ صوتَ دكَّانٍ يغُلَق
تشبّث بأيّ شيءٍ يسقطُ
خارجَ البخار المُلتفّ حولَ جَسَدي
أريدُ أن أعرفَ أين وُلِدَ البكاء؟

أُعلِّقُ لوحةً فوقَ الكنبةِ الرمادية
رَسَمَهَا رجلٌ لي
ولم يضعْ لي عينَيْنْ
لم أسأله.
يُقاطعُني صوتُكَ على الهاتف
تحكي لي عن الضعفِ والحُبّ
وفتحةِ الهواءِ الصغيرةِ بينهُما.

جدَّتي لم تنسَ حبَّها الأوّل بعد زواجِها، كان طيراً مُهاجراً يأتي من وراء القِمم المُثلّجة، حاملاً تحتَ إبِطِه صرَّةَ أوراقِ الجوري، أقراصَ الزبدةِ، قناني النبيذِ، وسلّةَ البيضِ البَلَديّ، غارساً في وسطِها منديلاً، طرّزتْهُ أنيابُ الريحِ المارقةِ بين الصُّخُور.

في ما مضى، عضّتِ البراري ذراعَيْه، حتّى نَزَفَ دَمَهُ، فَشَرِبَتْهُ جدّتي، دمُهُ في دمِها، كطفلٍ في أحشائِها .

أنا من عائلةٍ تُحبُّ حتّى الموت
حتّى الحريقَ الكرهَ الشتيمةَ والبكاءَ
عواصفٌ وأحضانٌ حارّةٌ نحن
بيوتٌ وحُروب
عُراةٌ ومشردون
مُجرمون وثُكالى في الحُبّ
يعرفُ الرجالُ هذا جيّداً.
لا تعلمُ أنتَ أيَّ جيناتٍ هذه.
في الشارع أمس
وراءَ سيّارتِكَ المسرعة
كنتُ أرميكَ بالحَجَر
وأنتَ تُتمتِمُ: مجنونةٌ
بكائي يُخبرُكَ عن عائلتي المجنونةِ بالحُبّ.

كنّا في الجبال
نلمعُ كالصُّخُور
لا تُفرِّقُ بين دُمُوعنا والمطر
بين خُبزِنا ووُجُوهنا
عواءُ الذئاب ورعشاتنا.
كيف تظنُّ امرأةً جبليّةً ستحبُّكَ
وتفتحُ لكَ جَسَدَهَا
كَفَيءٍ انتشرَ للتّوّ.
ألا تسمعُ خُبزاً يتكسَّرُ في قُبلتي،
وحين تلفُّني ذراعاكَ
ألا تشمُّ رائحةَ مَطَرٍ في التراب
وأنا كَعَتْبَةٍ ريفيّةٍ أنتظرُكَ على المفارق.

هذه النشوةُ
مصباحٌ مُضيءٌ بين الجبال
وشُبَّاكٌ يختفي بين الثُّلُوج.
أعضُّ كُلَّ ما فيكَ
كَتنُّورٍ يشتعل.
آتي إليكَ ككلاب الشمال الضّالّة
عيناي في الأرض
و أقدامي تنفضُ جوعَها على بابِكَ.

الشامةُ فوق فمي
تمتدُّ وتكبرُ
تفكِّرُ بنسياني الآنَ،
هل هذا صحيحٌ؟
الشّامةُ على فخذي وجهُ امرأةٍ تحبُّكَ،
وخلفَ أذني كتابٌ لكَ،
الشامة فوق بَظرِي خاتمُ رجلٍ نسيَهُ في بيتي، ولم أرَهُ مرَّةً أخرى.

أين ستذهبُ ذكرياتي بعد الموت؟
أين يسقطُ مِشمشُ جدّتي الآن؟
وعلى كتفِكَ مَنْ تُثرثِرُ عن وزنها الزائد؟
وتحكي عن نهارِها السّيّئ؟
فوقَ سريري أتمدَّدُ
كرصاصةٍ فارغة،
ما الفرقُ بين ركبتي
والسّيّارةُ المهمَلَة أوّل الطريق
تؤوي المشرّدين
و العاطلين؟
قبضةُ بابٍ في سرّتي،
بقايا لونٍ أسود على أظافر قَدَمي، يشتهي المرأة التي رأيتُها صدفة في السوبر ماركت، كنتُ أشتري شموعاً، وكانت تشتري نبيذاً.

رجلٌ أتخيَّلُه
ينتظرني بقميصٍ أسود في الحانة
بنظرةٍ دائخةٍ مثلي،
أرأيتِ، أيتها الحرب؟
أنا امرأةٌ
بنهديْن لوزيَّيْن من الشمال
بجسرٍ مَكسورٍ تحت قَدَمَيّ
وقطط تموءُ
مازلتُ أشمُّ في البارود البعيد
رائحةَ رجل
يقتربُ من بيتي.
أنا نصفُ امرأة الآن
لا أتخيّلُ كيف تلتفُّ ساقاي
على بياضٍ قُطنيٍّ كلّ يوم.
كلّ هذا ينمو وحدَه
أنا لحمُ هذه الحرب.

أُكلِّمُكَ عن سهرتي مع أصدقائي في الحانة
عن خيبتي المطعونة حول باب الحانة
أنتظرُ شيئاً، لا أعرفُ أينَ هو،
أفتحُ له فمي كالينابيع في الشتاء
و أُمرِّغُ فيه شهوتي،
لكنّه لم يجئ يوماً
ربّما جاءَ، ولم ألتفتْ،
ربّما هي الحربُ تُعلِّمُكَ أن تنتظرَ،
لتصيرَ غرفةً من غُرف البيت،
في عينِك اليمنى مفتاحٌ
وفي الأخرى عينٌ ساحرة،
بين أصابع قَدَمَيْكَ أرجلُ كرسيٍّ
وعلى ظهرِك وسادةٌ وغطاء.
تقول لي: انتظري، وأنت تحلمين
انتظري مع رجال آخرين.

أجرحُ يدي، وأمصُّ دمي
لا أستطيعُ
لا أستطيعُ
أشواكٌ حول أحذيتي
ووراءَ خطواتي يسقُطُ ريشٌ أسود.
كَبُرَ نهداي
أريدُ حمّالةً جديدة
الأفكارُ في داخلي لا تمشي صوبَكَ
وليس هناك من حديقةٍ، أزرع فيها يدي، وأطمئنُّ.
أحلمُ بدبّابة والقليل من الرصاص في جعبتي
لأدخلَ الحقولَ المهجورة، وأُدرِّبَها على النسيان.
وإنْ اهتزّت الريحُ في حضن الشجر
سأخرجُ من الدبّابة باسمةً
وأرفعُ قبّعتي
لم أجئ لقتلكِ، أيّتها العصافيرُ.

ها أنا أتمدَّدُ
لساني يلعقُ الفوّهة
أنفي يسدُّها، وفي أذنيّ وضعتُ رصاصَتَيْن
لا تهربي، أيّتها العصافير
تعالي، والعبي معي،
في كوَّة البابِ، بنيتُ لكِ عشّاً صغيراً.
لستُ أنا الحرب
أيّتها العظامُ المصطكّة بين الشجر،
أنا سنُّ الذهب الباهت في ضحكةِ عجوز،
انطواء الظلال تحتَ المعاطف
خوفاً من الانتحار.
تعالَ، وَضَعْ يَدَيْكَ هنا فوقَ نهدي
قُربَ ما يُحبُّكَ
كثيراً يُحبُّكَ
لن أشتري حمّالةً جديدة
فراغُ يديْكَ، وهي تعبرُ الحُدُودَ، على مقاس نهديّ.

الغَيرةُ لا تُنجبُ لي طفلاً
أصيرُ زرَّ قميصكَ على الشاطئ،
دقّاتِ قلبِكَ في الزحمة،
خشونةَ صوتِكَ فوقَ جَسَدي.
أُلملمُ أعضائي كعجوز
كَخَبرٍ مُفاجئ،
حولَ عنقِكَ يدي
في فمِكَ أسناني
و بين فخذَيْكَ طمرتُ سرَّةً أخرى.
الغَيرةُ ما تركتْهُ حولَ أمّي من أسئلة
لم أشأ لها جواباً.
العتمُ يتبعُكَ إلى البيت
و صوتُكَ الحقود
يحرقُ شرفتي.

سيحكي قلبُك عنّي يوماً ما
نحنحاتٌ تجلسُ القرفصاء في الهواء، وتضيعُ
مُحدِّقةً بنا.
من كثرةِ الكلام في قلبِكَ
صامتةٌ أنا.

هذا المساء، فتحتُ دمعة أمّي فوق وجهي، حاولتُ جاهدةً أن أغيّرَها، أن أجعلَها تكبر وتطير، أن لا أُشعرَها بالخوف، وضعتُ لها موسيقى، كي تهدأ، جدلتُ لها ضفيرتَيْن، وقرأتُ رامبو، كي تحلمَ.

الخارجُ ليس بهذا السوءِ، يا صغيرتي، كنتُ على موعدٍ مع مدير مجلّة، وكنتُ أريدُ ذاك المخزون الكبير في قلبي، طلبتُ من سائق التاكسي أن يخفِضَ صوتَ الموسيقى.

أرجوكِ
يا دمعةَ أمّي فوق وجهي
لا تخذليني هذه المرّة.

نوافذُ الوحيدات هشَّة بيضاء
أنا لستُ غريبةً عنكِ
أنا أقربُكِ، أيتها الريح
ألمْ تسمعي بُحَّة صوتي
وضعتُ لكِ العشاء
هل جئتِ من لحم شاعر مجهول؟
أخبريني مَنْ تركَكِ تحومين حول شرفتي؟
مَنْ أخبركِ أني وحيدة؟
هل هرَبتِ من خيانةٍ في ظهيرة مملّة؟
أسمعُ في ظلِّكِ
عظامَ امرأةٍ ترتعشُ منَ اللّذّة سرّاً
بدأتُ أفهمُ
بدأتُ أغيبُ
بدأتُ أكونُكَ.
تعبتِ حتّى وصلتِ
إلى بيتي
هل هو أصيصُ شرفتي الفارغ مَنْ دلّكِ عليَّ؟

لا تقولي لي إنكِ سمعتِ شتائمي هذا الصباح
سعيدةٌ لزيارتِكِ
وسأخبرُ أمّي عنكِ،
أنا أقربُكِ، أيتها الريح
سأنامُ اليوم على أريكة الصالون
وأتركُ لكِ سريري
ربّما لا تريدين النوم.
أنا وحيدةٌ مثلُكِ
نامي في قلبي
كي تغادرَ أرواحُكِ متى شاءت.

الموسيقى تنضُجُ بطيئةً
والشِّعْرُ يجرِّدُ وَهْمي من غيمتِهِ الوحيدة،
يقولُ: لن تُمطري في مكانٍ جديد.
علَّمَني الحُبُّ أنَّ السّمكةَ لا تغمضُ عينَيْها، لأنَّها بلا جُفُون، إنه الخوفُ.
علَّمني الصمتُ أن يدَ العجوز لم تكنْ ترتعشُ وهي تموتُ، كانت تتذكَّر.

أذوقُ دمعي، أجمعُ قطراتِهِ بين يَدَيَّ، وأشربُ منه قليلاً، أشمُّ وردَ النسيان.

يُعلِّمني النسيانُ كيفَ أكونُ جميلةً.
تنامُ نسوةٌ في صوتي
كانت ستقولُ لكَ إحداهنّ إنّها تشتهيكَ
إلا أن المطر سَقَطَ فجأة.

كم مرّةً قلتُ لكَ، أيُّها الحُبُّ، تعالَ من الطريق الأقصر؟

حملتُكَ في رحمي، ليس لي أطفالٌ، لأشمَّ رائحتَكَ، وأهرُبُ، لكنْ، عندما يأتي الليلُ وتغادرُ آخرُ سنونوةٍ أطرافَ المدينة، أجثو كقطعة ثلجٍ في كأسٍ فارغة، وحيدةً أشمُّ بردي، وحدتي، عُزلتي.

لا طَعمَ لغيري في ركوة القهوة، في بخار الحساء المتصاعد، في عينيّ الدمية فوق السرير، لا طَعمَ لغيري فوقَ جسدي المُنحني وهو يستقبلُ الضُّيُوفَ، ألتقطُ قرطي الذي وَقَعَ على الأرض، وأضعُهُ في أذن دميتي البلاستيكية، أسألُ أمّي كيف تطبخُ الحساءَ، كيف تصنع القهوة.

تفكّرين بسلّمٍ من حبّات الرّمّان، من ضحكاتٍ بالأبيض والأسود، درجاتُهُ من بخار المدافئ بين الجبال، تنزلين عليه إلى الأعماق، عندما تصلُ غيبوبَتُكِ إلى أقصاها، ترفعُ سمّاعة الهاتف بدلاً عنكِ، وتقطعُ الكهرباء عن البيت، ثمّ تساعدُ النملةَ في حملِ نتف الخبز، وتحاول مطوّلاً أن تدخلَ معها في ثقب الزاوية.

توابيت في الأعماق، مُستلقيةٌ على أريكتِكِ، تُقلّدين أصواتَ الموتى، تُصلحِين ضوءَ الولاّعة، ثمّ تُوجّهينه ببطء صوبَ صور الحائط، رَسمَكِ أصدقاءٌ كثيرون، مزجُوا ألوانَهم كجنسٍ جماعيّ، وصنعوا لكِ عينَين.

في الصورة قُربَ النافذة، خلفَكِ الحربُ تُشعلُ سيجارة.

تجلسين في الممرّ، ممرِّ بيتِكِ الطويلِ، تنكشين شعرَكِ بقلم الرصاص، وترسمين على قشرة رأسِكِ نصفَ قلبٍ وسهماً.

درفةُ شبّاك جارتِكِ في الطّابق العلويّ، بعد أن تُرِكَتْ على عجل، صار صوتُها حفيفَ شجرِ أوّلَ الخريف، يفكِّرُ بالرحيل مثلكِ.

في الريفِ البعيدِ، وراءَ الجبالِ، ربما تعيشُ امرأةٌ مثلُكِ، بينما تكتبين الآن وفي يدِكِ تفّاحةٌ، تُصلح هي ساقَ طاولتِها المعطوبةَ، وتحرقُ النملَ الخارج من خزانتِهَا المُهترئة، تُطفئ الشمعةَ بإصبع قَدَمَيْها، ثمّ تنام.

أشتهي أن أكونَ أمًّا، أُرضِعُ طفلي مساءً، وأنا أشاهدُ نشرة الطقس، وأتفقّدُ الملابسَ البيضاءَ من باب الشرفة فوقَ حبلِ الغسيل، على فخذي اليُمنى منشفةٌ مَطويّةٌ لبقايا الحليب، وعلى الأخرى طفلي، ما سأحبُّهُ إغماضةُ ذراعيَّ حولَ جَسَده، كأنه جنينٌ في رحمي.

لكني سقفٌ لأرملةِ آخر الجبل، زوَّجتْ ابنتَهَا في الأمس، وها هي مشغولةٌ بترتيب وحدتها، كما يليق بسوادها، السريرُ تحت النافذةِ، والمذياعُ على الحافة، والخزانةُ تسدُّ بابَ غرفة النوم، غرفةُ النوم التي أجَّرتْها منذ يومَينْ لامرأةٍ تُشبهني.

أشتهي لو كنتُ ثقباً في حقيبةِ مُشرَّدٍ، يطويني جيّداً، ويغنّي، وعندما تمتلئ الأزقّة بالغرباء مثله، يخافُ عليَّ، ويحرُسني، لا أغيبُ عن نَظره، يقطعُ غناءَهُ تحتَ الجسرِ، وينظرُ إليّ، نحن توأمان، كان يُخبرُ صديقَهُ على الهاتف أنّه يُشبُهني، هو أيضاً: ثقبٌ في هذا العالم.

لكنّي فردةُ حذاءٍ ميّتةٌ على سكّة قطار، تدوسُني الإيماءاتُ والخطواتُ والغرباءُ والقططُ البرّيّةُ وسحالي الظهيرة.

أشتهي لو كنتُ الحربَ، أشربُ زجاجة السُّمِّ، وأحقنُ رحمي بزيت الأرز.

هيّا، لنشاهدَ فيلماً، أيّها القنّاصُ البعيدُ المتكئُ على بوز بارودتِك
هل تُحبُّ الأفلامَ الفرنسيّة؟؟
تلكَ التي تبدأُ بقُبلة، وتنتهي بانتحار
تعالي، إلى شرفتي، أيتها الرصاصاتُ الطائشة
نثرتُ لكِ القليلَ من الحنطةِ والماءِ، كي تتذكّري.
اصمتوا جميعاً، وتعالوا إليّ،
عندي أغاني الحصاد والأعراس
شايٌ وقهوةٌ وأعشابٌ بريّة
عندي نبيذٌ من دمعِ الوادي
عندي من البهجةِ ما يكفينا، كي نموتَ معاً.
وأنتَ، يا حبيبي الحزين
فلتجئْ على رؤوسِ أصابِعِكَ مع الحرب
سأغلي لكَ الزنجبيلَ، وأفرشُ غطاءَ الطاولة البنفسجيّ
أحضِرْ بين حاجبَيْكَ ظلالَ القُبُور الطّرية
سأنتظرُكُم على الباب بفستاني القرويّ الطويل
وفي يدي جَرّة فخّار
وعندما تقتربون، وأسمع لُهاثكم
ستُزغردُ فوقَ لساني كلُّ الجثث المجهولة
تلك التي لم يَدفُنْها،
لم يزرْها أحد .

في الصورة قُربَ النافذة، خلفَكِ الحربُ تُشعلُ سيجارة.

تجلسين في الممرّ، ممرِّ بيتِكِ الطويلِ، تنكشين شعرَكِ بقلم الرصاص، وترسمين على قشرة رأسِكِ نصفَ قلبٍ وسهماً.

درفةُ شبّاك جارتِكِ في الطّابق العلويّ، بعد أن تُرِكَتْ على عجل، صار صوتُها حفيفَ شجرِ أوّل الخريف، يفكّرُ بالرحيل مثلكِ.

في الريفِ البعيدِ، وراءَ الجبالِ، ربما تعيشُ امرأةٌ مثلُكِ، بينما تكتبين الآن وفي يدِكِ تفّاحةٌ، تُصلح هي ساقَ طاولتِها المعطوبةَ، وتحرقُ النملَ الخارج من خزانتِهَا المُهترئة، تُطفئ الشمعةَ بإصبع قَدَمَيْها، ثمّ تنام.

ISBN: 978-88-85771-12-3
9 788885 771123

المتوسط